٦- الزهد في الدنيا وبيان حقارتها

الزهد: هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وأما العلم المثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرًا بالإضافة إلى المأخوذ، فما عرف أن ما عند الله باقٍ، وأن الآخرة خير وأبقى كما أن الجوهر خير وأبقى من الثلج، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، وبقدر اليقين بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع.

❁ وقد مدح القرآن الزهد في الدنيا وذمّ الرغبة فيها.

فقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧].

وقال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

❁ والأحاديث في ذم الدنيا وبيان حقارتها عند الله كثيرة جدًّا:

عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرّ بالسوق والناس كَنَفَتَيْه، فمر بجدي أسكّ ميت فتناوله فأخذ بأذنه، فقال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه أنه أسكّ فكيف وهو ميت؟ فقال: «**والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»(١).

وعن المستورد بن شدَّاد الفهْري عن النبي ﷺ قال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع**»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٨/ ٩٣) «الزهد»، وأبو داود [١٨٤] «الطهارة» وقوله: «**والناس كنفتيه**» أي حوله وفيه أدب سير طلاب العلم مع العالم، وقوله: «**أسك**» أي: صغير الأذنين.

(٢) رواه مسلم (١٨/ ٩٣) «الجنة وصفة نعيمها»، والترمذي (٩/ ١٩٩) «الزهد»، وابن ماجه [٤١٠٨].

وعن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١).

فالزهد: هو الإعراض عن الشيء لاستقلاله، واحتقاره، وارتفاع الهمة عنه، يقال: شيء زهيد أي قليل حقير.

قال يونس بن ميسرة: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء وأن يكون مادحك وذامّك في الحق سواء».

فَفسَّر الزهد في الدنيا بثلاثة أشياء كلها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح، ولهذا كان أبو سليمان يقول: لا تشهد لأحد بالزهد.

أحدها- أن يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه، وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوته، قيل لأبي حازم الزاهد: ما مالُك؟ قال: «مالان لا أخشى معهما الفقر: الثقة بالله، واليأس مما في أيدي الناس».

وقيل له: أما تخاف الفقر؟ فقال: «أنا أخاف الفقر ومولاي له ما في السماوات، وما في الأرض، وما بينهما، وما تحت الثرى؟».

قال الفضيل: أصل الزهد: الرضى عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال: القنوع هو الزهد، وهو الغني، فمن حقق اليقين، وثق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا، ووضعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك كان زاهدًا حقًّا، وكان من أغنى الناس، وإن لم يكن له شيء من الدنيا، كما قال عمّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كفى بالموت واعظًا، وكفى باليقين غنىً، وكفى بالعبادة شغلًا».

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ١٩٨) «الزهد»، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي: زكريا ضعفوه، وقال الألباني: والصواب أن الحديث صحيح لغيره فإن له شواهد تقويه وانظر شواهده في «الصحيحة» رقم [٩٤٣].

obeikandi.com

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اليقين أن لا تُرضي الناس بسخط الله، ولا تحسد أحدًا على رزق الله، ولا تلم أحدًا على ما لم يؤتك الله، فإن رزْق الله لا يسوقه حرصُ حريص، ولا يرده كراهية كاره، فإن الله بقسطه، وعلمه، وحكمته، جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهمّ والحزن في السخط والشكّ».

الثاني- أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة في دنياه؛ من ذهاب مال، أو ولد، أو غير ذلك، أرغب في ثواب ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يبقى له، وهذا أيضًا ينشأ من كمال اليقين.

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات».

وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس.

الثالث- أن يستوي عند العبد حامده وذامُّه في الحق، وإذا عظمت الدنيا في قلب العبد اختار المدح وكره الذم، وربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذم، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح.

فمن استوى عنده حامده وذامه في الحق دلَّ على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه وامتلائه من محبة الحق، وما فيه رضى مولاه، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله».

وقد مدح الله عَزَّوَجَلَّ الذين يجاهدون في سبيله، ولا يخافون لومة لائم، وقد ورد عن السلف روايات أخرى في تفسير الزهد.

قال الحسن: «الزاهد الذي إذا رأى أحدًا قال: هو أزهد مني»، وسئل بعضهم - أظنه الإمام أحمد - عمن معه مال هل يكون زاهدًا؟ قال: «إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه فهو زاهد».

وقال إبراهيم بن أدهم: «الزهد ثلاثة أقسام: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة».

فأما الزهد الفرض: فالزهد في الحرام، والزهد الفضل: فالزهد في الحلال، والزهد السلامة: فالزهد في الشبهات.

وكل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو زاهد أيضًا، ولكن في الآخرة.

قال رجل لأحد الصالحين: ما رأيت أزهد منك، قال: أنت أزهد مني لقد زهدتُ في دنيا لا بقاء لها، ولا وفاء، وأنت زهدتَ في الآخرة، فمن أزهد منك؟

ولكن العادة جارية على تخصيص اسم الزهد على الزهد في الدنيا، والزهد يكون فيما هو مقدور عليه ولذا قيل لابن المبارك: يا زاهد، قال: «الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جائته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففي ماذا زهدت».

قال الحسن البصري: «أدركت أقوامًا وصحبت طوائف، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يُطْوَ لَه ثوبٌ، ولم يُنصب له قدْر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أَمَرَ مَنْ في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل، فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوهَهم، تجري دموعُهم على خُدودهم، يُناجون ربهم في فَكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن يغفرها، فلم يزالوا على ذلك، ووالله: ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة، فرحمة الله عليهم ورضوانه».

درجات الزهد:

الدرجة الأولى: أن يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتة، ولكن يجاهدها ويكفيها، وهذا يسمى: متزهد.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعًا لاستحقاره إياها، بالإضافة إلى ما طمع فيه، ولكنه يرى زهده، ويلتفت إليه، كالذي يترك درهمًا لأجل درهمين.

الدرجة الثالثة: أن يزهد في الدنيا طوعًا، ويزهد في زهده، فلا يرى أنه ترك شيئًا فيكون كمن ترك خَزَفَةً وأخذ جوهرةً.

ويمثل صاحب هذه الدرجة بمن منعه من الدخول على الملك كلبٌ على بابه، فألقى إليه لقمةً من خبز فشغله بها، ودخل على الملك، ونال القرب منه فالشيطان كلب على باب الله عَزَّوَجَلَّ، يمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوحٌ، والحجابُ مرفوعٌ، والدنيا كلقمة فمن تركها لينال عز الملك فكيف يلتفت إليها.

ذم الدنيا

اعلم أن الذم الوارد في الكتاب والسنة راجع إلى زمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ جعلهما خلفة لمن أراد أن يذّكَّر أو أراد شكورًا.

وورد في الأثر: «إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تصنعون فيهما».

وقال مجاهد: «ما من يوم إلا يقول: ابن آدم: قد دخلت، عليك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم فانظر ماذا تعمل فيّ، فإذا انقضى طوى، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يقضيه يوم القيامة».

وأنشد بعضهم:

إنَّمَا الدُّنْيَا إلى الجنَّةِ والنَّارِ طَرِيقٌ والليالي متْجرُ الإنسان والأيامُ سُوقٌ

فالوقت هو رأس مال العبد، وقد صح عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

فانظر إلى مُضَيع الساعات كم يفوته من النخيل.

وكان أحد الصالحين إذا أثقل الناس في الجلوس عنده يقول: «أما تريدون أن تقوموا، إن ملك الشمس يجرها لا يفتر».

وقال رجل لأحد العلماء: «قف أكلمك» قال: «أوقف الشمس».

وكذلك ليس ذم الدنيا راجعًا إلى مكان الدنيا وهو الأرض، وما أودع فيها من جبال وبحار وأنهار ومعادن، فإن ذلك كله من نعم الله على عباده، لما لهم فيها من المنافع والاعتبار، والاستدلال على وحدانية الصانع سبحانه، وقدرته وعظمته، وإنما الذم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا؛ لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وانقسم بنو آدم في الدنيا إلى قسمين:

أحدهما- من أنكر أن للعباد دارًا بعد الدنيا للثواب، والعقاب، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

وهؤلاء همهم التمتع في الدنيا واغتنام لذاتها قبل الموت كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

والقسم الثاني- من يقر بدار بعد الموت للثواب والعقاب، وهم المنتسبون إلى المرسلين، وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

والظالم لنفسه: هم الأكثرون، وأكثرهم واقف مع زهرة الدنيا وزينتها، فأخذها من غير وجهها، واستعملها في غير وجهها، وصارت الدنيا أكبر همّه، بها يرضى، وبها يغضب، ولها يوالي، وعليها يعادي، وهؤلاء أهل اللعب واللهو والزينة، وإن كانوا

يؤمنون بالآخرة إيمانًا مجملًا فهم لم يعرفوا المقصود من الدنيا، ولا أنها منزلة يتزود فيها لما بعدها.

والمقتصد: من أخذ الدنيا من وجوهها المباحة، وأدى واجبها، وأمسك لنفسه الزائد على الواجب يتوسع به في التمتع بشهوات الدنيا، وهؤلاء لا عقاب عليهم في ذلك إلا أنه ينقص درجاتهم كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لولا أن تنقص من حسناتي لخالفتكم في لين عيشكم ولكن سمعت الله عَيَّرَ قومًا فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وأما السابق بالخيرات بإذن الله: فهم الذين فهموا المراد من الدنيا وعملوا بمقتضى ذلك، فعلموا أن الله إنما أسكن عباده في الدار ليبلوهم أيهم أحسن عملًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

يعني: أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨].

فاكتفى السابقون منها بما يكفي المسافر من الزاد، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرةٍ، ثم راح وتركها**»(١).

ووصى ابنَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال له: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»(٢).

ومتى نوى من تناول شهواته المباحة التقوِّي على طاعة الله كانت شهواته له طاعة يثاب عليها، كما قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي».

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ٢٢٣) «الزهد»، وقال: حسن صحيح، والحاكم (٤/ ٣٠١) «الرقاق»، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، ورواه أحمد (١/ ٣٩١) وصححه الألباني في «الصحيحة» بشاهده رقم [٤٣٩].

(٢) تقدم تخريجه.

قال سعيد بن جبير: «متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يلهك فليس بمتاع الغرور ولكن متاع بلاغ إلى ما هو خير منه».

وقال يحيى بن معاذ: «كيف لا أحب دنيا قُدر لي فيها قوت أكتسب به حياة، أدرك بها طاعة، أنال بها الجنة».

وسُئل أبو صفوان الرعيني: ما هي الدنيا التي ذمّها الله في القرآن والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟ فقال: «كل ما أصبت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس منها».

وقال الحسن: «نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن؛ وذلك أنه عمل قليلًا وأخذ زاده منها للجنة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق؛ وذلك أنه ضيع لياليه وكان زاده منها إلى النار».

قال عون بن عبد الله: «الدنيا والآخرة في القلب ككفتي الميزان ما ترجح إحداهما تخف الأخرى».

وقال وهب: «إنما الدنيا والآخرة كرجل له امرأتان إذا أرضى إحداهما أسخط الأخرى».

وقال أبو الدرداء: «لئن حلفتم لي على رجل أنه أزهدكم لأحلفنَّ لكم أنه خيركم».

وقال رجل للتابعين: «لأنتم أكثر عملًا من أصحاب رسول الله ﷺ ولكنهم كانوا خيرًا منكم، كانوا أزهد في الدنيا».

أضرار حب الدنيا

حب الدنيا هو الذي عمّر النار بأهلها، والزهد في الدنيا هو الذي عمّر الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بالخمر، فصاحبه لا يفيق إلا في ظلمة اللحد.

قال يحيى بن معاذ: «الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى نادمًا بين الخاسرين»، وأقل ما فيها أنه يلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله

فهو من الخاسرين، وإذا لهى القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان، وصرفه حيث أراد... ومن فقهه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل الخير.

ويقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة».

قالوا: وإنما كان حبُّ الدنيا رأس الخطايا، ومفسدًا للدين من وجوه:

أحدها- أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقّر الله.

ثانيها- أن الله لعنها، ومقتها، وأبغضها، إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة، ومقته وغضبه.

وثالثها- أنه إذا أحبها صيّرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة، فها هنا أمران: أحدهما- جعل الوسيلة غاية، والثاني- التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه: حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة، قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

[هُودٌ: ١٥ - ١٦]

والأحاديث كثيرة، منها حديث أبي هريرة في الثلاثة الذين هم أول من تسعّر بهم النار: الغازي، والمتصدق، والقارئ، الذين أرادوا بذلك الدنيا، والنصيب. وهو في مسلم[1].

(١) رواه مسلم (١٣/ ٥٠، ٥١) «الجهاد والسير».

فانظر محبة الدنيا كيف حَرَمَتْ هؤلاء من الأجر، وأفسدت عليهم عملهم، وجعلتهم أول الداخلين إلى النار.

رابعًا- أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة باشتغاله عنه بمحبوه، والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها - وإن قام بغيره - ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته وفي حقوقه، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه، فيؤديه ظاهرًا لا باطنًا، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها، هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولابد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا.

خامسًا- أن محبتها تجعلها أكبر همّ العبد، وقد روى الترمذي من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»**[(١)].

سادسها- أن محبها أشد الناس عذابًا بها، وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذابًا في قبره، يعمل الهمُّ والحزنُ والغم والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٣ تحفة) «صفة القيامة» وسكت عنه وقال الألباني: وهو إسناد ضعيف لكنه حسن في «المتابعات» وله شاهد عند ابن ماجه وابن حبان: وهو في «الصحيحة» رقم [٩٤٩].

والمقصود: أن محب الدنيا يعذب في قبره، ويعذب يوم لقاء ربه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

قال بعض السلف: «يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها».

وسابعها- أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلًا، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام نوم، أو كظلّ زائل، إن اللبيب بمثلها لا يخدع.

وكان بعض السلف يتمثل هذا البيت:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ... إن اغْتِرَارًا بِظِلٍ زائلٍ حمق

قال يونس بن عبد الأعلى: «ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه».

وأشبه الأشياء بالدنيا: الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب، وأشبه الأشياء بها: عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبَر، غدّارة بالأزواج، تزينت للخطّاب بكل زينة، وسترت كل قبح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها، فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلا فقْد الآخرة، فإننا ضرتان، واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخُطّاب العاجلة، وقالوا: ما على مَن واصل حبيبته من جناح، فلما كشف قناعها، وحل إزارها، إذا كُل آفةٍ وبلية،

فمنهـم من طلق واسـتراح، ومنهم من اختار المقام فما اسـتتمت ليلة عرسـه إلا بالعويل والصياح.

تـالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائـق، بحي على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمصلـون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالـرواح، وسروا ليلهم، فلم يحمد القوم السرى عند الصباح، طاروا في صيدها، فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسـور الجناح، فوقعوا في شبكتها، فأسلمتهم للذُبَّاح.

obeikandl.com

٧- أحوال النفس ومحاسبتها

اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الربّ، وأنه لا يدخل عليه - سبحانه - ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها، وتركها بمخالفتها، والظفر بها.

فإن الناس على قسمين: قسمٌ ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعًا لها تحت أوامرها، وقسمٌ ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعًا لهم، منقادة لأوامرهم.

قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

والنفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والربّ يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلبُ بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف الله - سبحانه - النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، واللوامة، والأمَّارة بالسوء، فاختلف الناس: هل النفس واحدة وهذه أوصاف لها، أم للعبد ثلاثة أنفس؟

فالأول- قول الفقهاء والمفسرين، **والثاني-** قول كثير من أهل التصوف، والتحقيق: أنه لا نزاع بين الفريقين، فإنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاثة باعتبار صفاتها.

النفس المطمئنة:

إذا سكنت النفس إلى الله عَزَّوَجَلَّ واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة.

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: المطمئنة المصدقة، وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله، وصاحبها يطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته إلى خبره الذي أخبر عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعده من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا، ثم يطمئن إلى قدر الله عَزَّوَجَلَّ فيسلم له ويرضى، فلا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه، وقبل أن يخلق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١].

قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى، ولا تقليدًا، ولا يساكن شبهة تعارض خبره، ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرّت به أنزلها منزلة الوساوس التي لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صريح الإيمان**»[1]، وكذلك يطمئن من قلق المعصية، وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها.

فإذا اطمأن من الشكّ إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز

(١) رواه مسلم (٢/ ١٥٣) «الإيمان» ولفظه عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألوه، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**».
وروى مسلم كذلك عن ابن مسعود قال: سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الوسوسة قال: «**تلك محض الإيمان**».
قال النووي: استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلًا عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالًا محققًا وانتفت عنه الريبة والشك - شرح النووي على «صحيح مسلم» (٢/ ١٥٤).

إلى الكيس، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع، فعند ذلك تكون نفسه مطمئنة.

وأصل ذلك كله هي اليقظة، التي كشفت عن قلبه سِنَةَ الغفلة، وأضاءت له قصور الجنة، فصاح قائلًا:

أَلا يا نفْسُ وَيْحَكِ سَاعِديني ... بِسَعْيٍ مِنْكِ في ظُلَمِ الليالي
لَعَلَّكِ في القيامة أنْ تَفُوزِي ... بطيبِ العَيْشِ في تِلْكَ العَلالي

فرأى في ضوء هذه اليقظة ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا، وقلة وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلًا: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

فاستقبل بقية عمره مستدركًا ما فات، محييًا ما أمات، مستقبلًا ما تقدم له من العثرات، منتهزًا فرصة الإمكان التي إن فاتت فاته جميع الخيرات، ثم يلحظ في نور تلك اليقظة وفور نعمة ربه عليه، ويرى أنه آيسٌ من حصرها وإحصائها، عاجزٌ عن آداء حقها، ويرى في تلك اليقظة عيوب نفسه، وآفات عمله، وما تقدم له من الجنايات، والإساءات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فتنكسر نفسه، وتخشع جوارحه، ويسير إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه، ومطالعة جناياته، وعيوب نفسه، ويرى أيضًا في ضوء تلك اليقظة عزَّة وقته، وخطره، وأنه رأس مال سعادته فيبخل به فيما لا يقربه إلى ربه، فإن في إضاعته الخسران والحسرة، وفي حفظه الربح والسعادة.

فهذه آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي ينشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة.

النفس اللوّامة:

قالت طائفة: هي التي لا تثبت على حال واحدة، فهي كثيرة التقلب والتلون، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتتقي.

وقالت أخرى: هي نفس المؤمن، قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا يقول: ما أردت هذا؟ لم فعلت هذا؟ كان هذا أولى من هذا؟ أو نحو هذا الكلام.

وقالت أخرى: اللوم يوم القيامة، فإن كلَّ أحدٍ يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته، وإن كان محسنًا على تقصيره.

يقول الإمام ابن القيم: وهذا كله حق.

واللوامة نوعان: لوامة ملومة، ولوامة غير ملومة.

اللوامة الملومة: هي النفس الجاهلة، الظالمة، التي يلومها الله وملائكته.

اللوامة غير الملومة: وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله - مع بذله جهده - فهذه غير ملومة واشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت ملام اللوام في مرضاته، فلا تأخذها في الله لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها، ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله عَزَّوَجَلَّ.

النفس الأمّارة بالسوء:

وهذه النفس المذمومة، فإنها تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها، فما تخلَّص أحد من شرها إلا بتوفيق الله، كما قال تعالى حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمهم خطبة الحاجة: «**إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا**»(١).

فالشرُّ كامنٌ في النفس، وهو يوجب سيئات الأعمال، فإذا خلَّى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها، وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه الله وأعانه نجا من ذلك كله.

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وخلاصة القول: إن النفس واحدة تكون: أمارة، ثم لوامة، ثم مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحها.

والنفس المطمئنة قرينها المَلَك، يليها، ويسددها، ويقذف فيها الحق، ويرغبها فيه، ويريها حسنَ صورته، ويزجرها عن الباطل، ويزهدها فيه، ويريها قبح صورته، وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من عند النفس المطمئنة، وأما النفس الأمارة فجُعل الشيطانُ قرينُها، وصاحبُها الذي يليها، فهو يَعِدها، ويمنيها، ويقذف فيها الباطل، ويأمرها بالسوء، ويزينه لها، ويطيل في الأمل، ويريها الباطل في صُورةٍ تقبلها وتستحسنها.

فالنفس المطمئنة والملك يقتضيان من النفس المطمئنة: التوحيد، والإحسان، والبر والتقوى، والتوكل، والتوبة، والإنابة، والإقبال على الله، وقصر الأمل، والاستعداد للموت وما بعده.

والشيطانُ وجندهُ من الكفرة يقتضيان من النفس الأمَّارة ضد ذلك وأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمارة، فلو وصل منها عمل واحد لنجا به العبد، ولكن أبت الأمّارة والشيطان أن يَدَعا له عملًا واحدًا يصل إلى الله،

(١) رواه أبو داود [٢١١٨] «النكاح»، وقال الألباني: صحيح، وانظر رسالته: «خطبة الحاجة» للألباني.

obeikandl.com

كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه «والله لو أعلم أن لي عملًا واحدًا وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يَقْدُمُ على أهله»، وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو أعلم أن الله قبل مني سجدةً واحدةً لم يكن غائبٌ أحبَّ إلي من الموت».

وقد انتصبت الأمّارة في مقابلة المطمئنة، فكلما جاءتْ به تلك من خير ضاهتْها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تُفسدَه عليها، وتريَه حقيقة الجهاد في صورة تقتيل النفس، وتُنكح الزوجة، ويصير الأولاد يتامى، ويُقسم المال، وتريه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه، وخلو اليد منه، واحتياجه إلى الناس، ومساواته للفقير.

محاسبة النفس

علامة استيلاء النفس الأمَّارة بالسوء على قلب المؤمن محاسبتها والتضييق عليها وسؤالها عن كل قول وعمل.

قال الحسن: «المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة».

إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا؟! ما لي ولهذا؟! والله لا أعود إلى هذا أبدًا. إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

obeikandi.com

قال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمّها، ثم خَطَمَها، ثم ألزمها كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فكان لها قائدًا».

فحق على الحازم المؤمن بالله وباليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها، وخطراتها، فكل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة يمكن أن يشتري بها كنزًا من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسرانٌ عظيم، لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

ومحاسبة النفس نوعان: نوع من قبل العلم ونوع بعده:

أما النوع الأول- فهو أن يقف عند أول همّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانُه على تركه.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره تأخّر».

وشرح بعضهم هذا فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال، وهمّ به العبد، وقف أولًا ونظر: هل ذلك العلم مقدور عليه، أو غير مقدور، ولا مستطاع، فإن لم يكن مقدورًا لم يقدم عليه، وإن كان مقدورًا عليه وقف وقفة أخرى، ونظر: هل فعلهُ خير له من تركه، أم تركه خير له من فعْله، فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عَزَّوَجَلَّ وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق، فإن كان الثاني لم يقدم، وإن أفضى به إلى مطلوبه، لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخفّ عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخفّ عليها ذلك يثقل عليها العمل لله -

تعـالى – حتـى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقـف وقفة أخرى: ونظر هل هو معـان عليه وله أعوان يسـاعدونه وينصرونـه إذا كان العمل محتاجًـا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكـن له أعوان أمسـك عنه كما أمسـك النبي ﷺ عن الجهـاد بمكة حتى صار له شـوكة وأنصـار، وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنـه منصور بإذن الله، ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

والنوع الثاني- محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أحدهـا- محاسـبتها على طاعة قصرت فيهـا من حق الله – تعـالى –، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة ستة أمور وهي:

الأول- الإخـلاص في العمـل، والنصيحـة لله فيه، ومتابعة الرسـول ﷺ، وشـهود مشـهد الإحسـان، وشـهود مِنّة الله عليه، وشـهود تقصـيره فيه بعـد ذلك كله، فيحاسب نفسه هل وفّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة.

الثاني- أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث- أن يحاسـب نفسـه على أمر مباح لِمَ فعله، وهل أراد به الله – تعالى – والدار الآخرة فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وآخر ما عليه الإهمال، وترك المحاسـبة، والاسترسـال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور، يغمض الواحد عينيه عن العواقب ويتـكل على العفو، فيهمل محاسـبة نفسـه والنظـر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سـهل عليه مواقعةُ الذنوب، وأنِسَ بها وعسر عليه فِطَامُها.

وجمـاعُ ذلك أن يحاسـبَ نفسَـه أولًا على الفرائض فإن تذكَّر فيهـا نقصًا تداركَه إما بقضاءٍ أو إصلاحٍ، ثم يحاسبُها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة

والاستغفار، والحسنات الماحية ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلِق له تداركه بالذكر والإقبال على الله - تعالى-، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت به رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه، ماذا أردتُ بهذا، ولم فعلتُه، ولمن فعلته، وعلى أي وجه فعلته، ويعلم أنه لابُدَّ أن يُنْشَر لكل حركةٍ وكلمةٍ ديوانان: لمن فعلتَه؟ وكيف فعلتَه؟ فالأول- سؤال عن الإخلاص، والثاني- سؤال عن المتابعة، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

فإذا سُئل الصادقون عن صدقهم، وحوسبوا على صدقهم، فما الظنُّ بالكاذبين؟!

فوائد محاسبة النفس

١- الاطلاع على عيوب نفسه: ومن لم يطَّلع على عيوب نفسه لم يمكنه إزالتها، قال يونس بن عبيد: «إني لأجد مائة خَصْلة من خِصَال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة».

وقال محمد بن واسع: لو كان للذنوب ريحٌ ما قدر أحدٌ أن يجلسَ إليّ.

وعن أبي الدرداء قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون أشدّ لها مقتًا».

٢- أن يعرف حق الله - تعالى - عليه؛ فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يطاع فلا يعصى وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

٨- الصبر والشكر

فلما كان الإيمان نصفين فنصف صبر ونصف شكر، كان حقيقًا على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين، وأن يجعل سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ في هذين الطريقين القاصدين؛ ليجعله الله يوم القيامة مع خير الفريقين.

(أ) الصبر

فضائله:

إن الله سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكبو، وصارمًا لا ينبو، وجندًا غالبًا لا يُهزم، وحصنًا حصينًا لا يُهدم، فهو والنصر أخوان شقيقان، وقد مدح الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الصابرين، وأخبر أنه يؤتيهم أجرهم بغير حساب، وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز، وفتحه المبين، فقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فظهر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، ففازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطةً بالصبر واليقين فقال تعالى - وبقوله اهتدى المهتدون -: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.
[السجدة: ٢٤]

وأخبر تعالى أن الصبر خيرٌ لأهله مؤكدًا باليمين، فقال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيدُ العدو ولو كان ذا تسليط، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.
[آل عمران: ١٢٠]

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وبشَّر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون: فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وجعل الفوز بالجنة، والنجاة من النار، لا يحظى به إلا الصابرون، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

وخصّ في الانتفاع بآياته أهلَ الصبر، وأهلَ الشكر، تمييزًا لهم بهذا الحظ الموفور، فقال في أربع آيات من كتابه جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، [لقمان: ٣١]، [سبأ: ١٩]، [الشورى: ٣٣].

والصبر آخية المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساقُ إيمانه التي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خَسِرَ الدنيا والآخرة، ولم يحظ منها إلا بالصفقة الخاسرة، فخير عيش أدركه السعداءُ بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

معنى الصبر وحقيقته

الصبر لغة: هو المنع والحبس، وشرعًا فهو حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب، ونحوهما.

وقيل: هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

سئل عنه الجنيد فقال: «تجرع المرارة من غير تعبُّس».

وقال ذو النون المصري: «هو التباعد عن المخالفات، والسكونُ عند تجرعِ غُصَصِ البلية، وإظهارُ الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة».

وقيل: «الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب».

وقيل: «هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى».

ورأى أحد الصالحين رجلًا يشتكي إلى أخيه فقال له: يا هذا، والله ما زدتَ على أن شكوت من يرحمك إلى مَن لا يرحمك.

وقيل في ذلك:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكي الرحيمَ إلى الذي لا يَرحمُ

والشكوى نوعان: شكوى إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهذه لا تنافي الصبر، كقول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُفَ: ٨٦].

مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يُوسُفَ: ٨٣].

والنوع الثاني: شكوى المبتلى بلسان الحال أو المقال، فهذه لا تجامع الصبر بل تضادّه وتبطله.

وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر، ولا يناقض هذا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»[1]، فإن هذا بعد نزول البلاء، فساحة الصبر أوسع الساحات، أما قبل نزوله فساحة العافية أوسع.

والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطامٌ ولا زمامٌ شردت في كل مذهب، وحُفِظَ من

(١) رواه البخاري (٣/ ٣٣٥) «الزكاة»، ومسلم (٧/ ١٤٤، ١٤٥) «الزكاة».

خُطَبِ الحجَّاج: «إقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوء، فرحم الله امرءًا جعل لنفسه خطامًا وزمامًا فقادها بخاطمها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإن الصبر عن محارم الله أيْسَرُ من الصبر على عذابه».

والنفس لها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام.. فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكًا عما يضره، ومن الناس من يصبر على قيام الليل ومشقة الصيام، ولا يصبر على نظرة محرمة، ومنهم من يصبر على النظر والالتفات إلى الصور، ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد.

وقيل: الصبر شجاعة النفس، ومن ها هنا أخذ القائل قوله: «الشجاعة صبر ساعة»، والصبر والجزع ضدّان، كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

أقسام الصبر باعتبار متعلقه

والصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقضية حتى لا يتسخطها، وهذه الأقسام هي التي قيل فيها:

«لابد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

والصبر أيضًا نوعان: اختياري واضطراري، والاختياري أكمل من الاضطراري، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأنى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن مطاوعة امرأة العزيز أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لمّا ألقَوْه في الجب.

فالإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال؛ لأنه يتقلب بين أمرٍ يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدرٍ يجري عليه اتفاقًا، ونعمةٍ يجب شكر المنعم بها عليه، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم إلى الممات.

وكل ما يَلْقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين:

أحدهما- يوافق هواه ومراده.

والآخر- يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما، أما النوع الموافق لغرضه كالصحة، والجاه، والمال، فهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها- أن لا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر، والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهلَه.

والثاني- أن لا ينهمك في نيلها.

والثالث- أن يصبر على أداء حق الله فيها.

والرابع- أن يصبر عن صرفها من الحرام، قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصِّدِّيقون».

وقال عبد الرحمن بن عوف: ابتلينا بالضرّاء فصبرنا، وابتلينا بالسرّاء فلم نصبر!، ولذلك يحذر الله عباده من فتنة المال، والأزواج، والأولاد.

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾.

[المنافقون: ٩]

أما النوع الثاني المخالف للهوى: فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط أَوَّلُه باختياره كالمصائب، أو يرتبط أَوَّلُه باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه.

فها هنا ثلاثة أقسام:

القسم الأول- ما يرتبط باختياره، وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية، أما في الصلاة فلما فيها من الكسل وإيثار الراحة لاسيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب، ورين الذنب والميل إلى الشهوات، ومخالطة أهل الغفلة.

وأما الزكاة فلما في طبع النفس من الشح والبخل، وكذلك الحج، والجهاد للأمرين جميعًا، ويحتاج العبد إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

قبل الشروع في الطاعة، وذلك بتصحيح النية، والإخلاص في الطاعة، وحين الشروع في الطاعة، وذلك بالصبر على دواعي التقصير والتفريط، واستصحاب النية ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

والثالثة بعد الفراغ من الطاعة، وذلك بالصبر على ما يبطلها، فليس الشأن في الإتيان بالطاعة، وإنما الشأن في حفظها مما يبطلها، فيصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر، وكذلك يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فإن العبد يعمل العمل سرًّا بينه وبين الله – سبحانه–، فيُكْتب في ديوان السر، فإن تحدث به نقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

أما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة.

القسم الثاني- ما لا يدخل تحت الاختيار، وليس للعبد حيلة في دفعه كالمصائب، وهي إما أن تكون مما لا صنع لآدميّ فيه كالموت، والمرض، والثاني– ما أصابه من جهة آدمي كالسبّ والضرب.

فالنوع الأول- للعبد فيه أربعة مقامات: مقام العجز، وهو الجزع والشكوى، والثاني- مقام الصبر، والثالث- مقام الرضى، والرابع- مقام الشكر وهو بأن يشهد البليةَ نعمةً فيشكر المبتلي عليها.

وما أصابه من جهة الناس فله فيه هذه المقامات مضافًا إليها أربعة أُخر: الأول- مقام العفو، **الثاني-** مقام سلامة الصدر من إرادة التشفي، الثالث- مقام القدر، والرابع- مقام الإحسان إلى المسيء.

القسم الثالث- ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكن منه لم يكن له اختيار، ولا حيلة في دفعه.

الأخبار الواردة في فضيلة الصبر

عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله (إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها) إلا أخلف الله له خيرًا منها**»، قالت: فلمّا مات أبو سلمة قلتُ: أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ ....» الحديث[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن يرد الله به خيرًا يصب منه**»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مصيبة تصيب المؤمن إلا كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها**»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٦/ ٢٢٠، ٢٢١) «الجنائز»، ومالك في «الموطأ» (١/ ٢٣٦) «الجنائز»، وأبو داود [٣٣٠٩] «الجنائز» بمعناه، وابن ماجه [١٥٩٨] «الجنائز».

(٢) رواه البخاري (١٠/ ١٠٣) «المرضى»، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٩٤١) «العين».

(٣) رواه البخاري (١٠/ ١٠٣) «المرضى»، ومسلم (١٦/ ١٢٩) «البر والصلة».

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**»(١).

عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة - فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه، وعظمه، ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(٢).

الآثار: قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس».

قال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

لَما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا، ولما أرادوا قطع رِجْل عروة بن الزبير قالوا له: لو سقيناك شيئًا كيلا تشعر بالوجع، فقال: إنما ابتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره؟!

قال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله على عبد نعمةً فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرًا مما انتزعه».

ومرض أبو بكر الصديق فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب، فقال: «قد رآني الطبيب، قالوا: فأيُّ شيء قال لك؟ فقال: قال: «إني فعّالٌ لما أريد».

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٣٦) «الجهاد»، وأبو داود [٣٠٧٥] «الجنائز».

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢٠٢) «مناقب الأنصار».

obeikandi.com

ورُوي أن سعيد بن جبير قال: «الصبر: اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله، ورجاء ثوابه، وقد يجزع العبد وهو يتجلّد لا يرى منه إلا الصبر».

فقوله: اعتراف العبد لله بما أصابه كأنه تفسير لقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦]. فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد، وراجيًا به ما عند الله كأنه تفسير لقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] أي: نرد إليه فيجزينا على صبرنا، ولا يضيع أجر المصيبة.

(ب) الشكر

الشكر: هو الثناء على المنعم بما أوْلاكَهُ من معروف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان - لا يكون شكرًا إلا بمجموعها - وهي: الاعتراف بالنعمة باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، والاستعانة بها على طاعة الله، فالشكر يتعلق بالقلب، واللسان، والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبّة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه.

وقد قرن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾. [النِّسَاء: ١٤٧]

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأَنْعَام: ٥٣].

وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكُفر وأهلهُ، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهلُه، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإِنْسَان: ٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٧].

obeikandl.com

فعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره، وقد وقف الله - سبحانه - كثيرًا من الجزاء على المشيئة.

كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال في المغفرة: ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٤٠].

وقال في التوبة: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٥].

وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا حيث ذكره كقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. [آل عمران: ١٤٥]

ولما عَرف عدُو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وثبت في (الصحيحين) عن النبي ﷺ: أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

وعنه ﷺ قال: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٤١) «التهجد»، ومسلم (١٧/ ١٦٢) «صفات المنافقين».
والترمذي (٢/ ٢٠٤، ٢٠٥)، والنسائي (٣/ ٢١٩) «قيام الليل».

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٥١) «الذكر والدعاء»، والترمذي (٨/ ٩) «الأطعمة».

فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

في مقابلة شكره بالحمد والشكر قيد النعم وسبب المزيد، قال عمر بن عبد العزيز: «قيدوا نعم الله بشكر الله»، وذكر ابن أبي الدنيا عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لرجل من همذان: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد».

وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

والله - تعالى - يحب أن يُرى أثرُ نعمتِهِ على عبده، فإنَّ ذلك شكرها بلسان الحال.

وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: «أصبحنا مغرقين في النعم، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربُّنا وهو غنيٌّ عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون».

وقال شريح: «ما أصيب عبدٌ بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لابد كائنة فقد كانت».

وقال يونس بن عبيد: قال رجل لأبي تميمة، كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتُهما أفضل: ذنوب سترها الله عليّ فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودةٍ قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي».

وعن سفيان في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر، وقال غير واحد: «كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة».

obeikandl.com

قال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ فقال: إنْ رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإنْ رأيتَ بهما شرًّا سترتَه.

قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إنْ سمعتَ بهما خيرًا وعيتَه، وإن سمعت بهما شرًّا دفعتَه.

قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقًّا لله هو فيهما.

قال: فما شكر البطن؟ قال: أنْ يكون أسفله طعامًا وأعلاه علمًا.

قال: فما شكر الفرج؟ قال: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

قال: فما شكر الرِجْلَين؟ قال: إن علمت ميتًا تغبطه استعملت بهما عمله، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله.

وأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر، والبرد، والثلج، والمطر.

وكتب بعض العلماء إلى أخٍ له: أما بعد فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر، أجميل ما يَسَّر، أم قبيح ما ستر؟!

٩- التوكل

التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله عَزَّوَجَلَّ في استجلاب المصالح ودفع المضارّ في أمور الدنيا والآخرة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٢ - ٣].

فمن حقق التقوى والتوكل، اكتفى بذلك في مصالح دينه ودنياه.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا**»[(١)].

[حسن صحيح]

قال أبو حاتم الرازي: هذا الحديث أصلٌ في التوكل وإنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزقُ.

وقال سعيد بن جبير: «التوكل جماع الإيمان» وتحقيق التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب التي قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المقدرات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله - تعالى - أمر بتعاطي الأسباب، مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ.....﴾.

[النِّسَاء: ٧١]

قال سهل: «من طعن في الحركة يعني في السعي والكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان»، فالتوكلُ حالُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والكسبُ سنتُه فمن عمل على حاله فلا يتركنّ سنته.

---

(١) رواه الترمذي (١٠/ ٢٠٨) «الزهد»، وقال: صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه (٦٤، ٤١)، والحاكم (٤/ ٣١٨) «الرقاق»، وقال: صحيح ولم يخرجاه وصححه الألباني.

وقيل: «عدم الأخذ بالأسباب طعن في التشريع، والاعتقاد في الأسباب طعن في التوحيد».

والأعمال التي يعملها العبد ثلاثة أقسام:

القسم الأول- الطاعات التي أمر الله بها عباده، وجعلها سببًا للنجاة من النار ودخول الجنّة، فهذا لابد من فعله، مع التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ فيه، والاستعانة به عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وما شاء سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قصّر في شيء مما وجب عليه من ذلك استحق العقوبة في الدنيا والآخرة شرعًا وقدرًا.

قال يوسف بن أسباط: «اعملْ عملَ رجلٍ لا ينجيه إلا عَمَلُه، وتوكلْ توكل رجل لا يصيبه إلا ما كُتب له».

القسم الثاني- ما أجرى الله العادة به في الدنيا وأمر عبادَه بتعاطيه كالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش، والاستظلال من الحر، والتدفؤ من البرد، ونحو ذلك، فهذا أيضًا واجب على المرء تعاطي أسبابه ومن قصّر فيه حتى تضرر بتركه - مع القدرة على استعماله - فهو مفرط يستحق العقوبة.

القسم الثالث- ما أجرى الله العادة به في الدنيا في الأعم الأغلب، وقد يَخرق العادة في ذلك لمن شاء من عباده وهي أنواع: كالأدوية مثلًا وقد اختلف العلماء: هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تركه لمن حقق التوكل على الله؟

فيه قولان مشهوران، وظاهر كلام الإمام أحمد أن التوكل لمن قَوِي عليه أفضلُ لما صحّ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب ثم قال: هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون**»[(١)].

(١) رواه البخاري (١٠/ ١٥٥) «الطب»، (٣/ ٨٨) «الإيمان»، والترمذي (٩/ ٢٦٧) «صفة القيامة» وفيه زيادة: «مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثياته»، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وحسن الألباني هذه الزيادة.

ومن رجَّح التداوي قال: إنه حال النبي ﷺ الذي كان يداوم عليه - وهو لا يفعل إلا الأفضل - وحمل الحديث على الرقى المكروهة، التي يخشى منها الشرك، بدليل أنه قرنها بالكي والطيرة وكلاهما مكروه.

قال مجاهد، وعكرمة، والنخَعي، وغير واحد من السلف: لا يرخَّص في ترك السبب بالكلية إلا لمن انقطع قلبه عن الاستشراف إلى المخلوقين بالكلية.

وسئل إسحق بن راهويه: هل للرجل أن يدخل المفازة بغير زاد؟ فقال: «إن كان الرجل مثل عبد الله بن جبير فله أن يدخل المفازة بغير زاد، وإلا لم يكن له».

obeikandl.com

١٠- محبة الله عَزَّوَجَلَّ

المحبةُ لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها كالشوق، والأنس، والرضى، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمةٌ من مقدماتها كالتوبة، والصبر، والزهد، وغيرها.

وأنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها، وأعلاها، وأجلها، محبة من جبلت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تأليهه، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة، والإجلال، والتعظيم، والذل له، والخضوع، والتعبد. والعبادة لا تصلح إلا له وحده، والعبادة: هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل.

والله تعالى يُحَبُّ لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنما يُحب تبعًا لمحبته، وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع الرسل، وفطرته التي فطر عباده عليها، وما ركب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة مَن أنعم عليها، وأحسن إليها، فكيف بمن كُل الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ

بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٣ - ٥٤].

وقد أقسم النبي ﷺ أنه: لا يؤمن عبدٌ حتى يكون هو أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين(١).

وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**لا، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك**»(٢).

أي: لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها، أفليس الربّ جل وعلا أولى بمحبته وعبادته من أنفسنا؟

وكل ما منه إلى عبده يدعوه إلى محبته مما يحب العبد ويكره، فعطاؤه ومنعه، ومعافاته، وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحياؤه، وبره ورحمته وإحسانه وستره، وعفوه وحلمه، وصبره على عبده، وإجابته لدعائه، وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه، كل ذلك داعٍ للقلوب إلى تأليهه ومحبته، فلو أن مخلوقًا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته؟

---

(١) رواه البخاري (١/ ٥٨) «الإيمان»، ومسلم (٢/ ١٥) «الإيمان»، وقال الحافظ: قوله: «**لا يؤمن**» أي: إيمانًا كاملًا.

وقال القاضي عياض وابن بطال وغيرهما: المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة وإحسان كمحبة سائر الناس، فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته.

وقال ابن بطال: ومعنى الحديث: أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين؛ لأن به ﷺ استنقذنا من النار وهُدينا من الضلال.

(٢) رواه البخاري (١١/ ٥٢٣) «الأيمان والنذور».

obeikandl.com

فخيره إليه نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي، وهو فقير إليه - فلا إحسان وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه.

وأيضًا: فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه، وغرضه منك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريدك لك.

وأيضًا: فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك، ولابد له من نوع من أنواع الربح، والرب - تعالى - إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محوًا.

وأيضًا: فهو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته، وبذلك الجهد في مرضاته.

وأيضًا: فَمَطَالِبُك - بل مطالب الخلق كلهم جميعًا - لديه، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، أعطى عَبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن، لا شغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين في الدعاء، ويحب أن يُسأل، ويغضب إذا لم يُسأل، ويستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، ودعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى، فأرسل رسله في طلبه، وبعث إليه معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه، وقال: «**مَن يسألني فأعطيه، مَن يستغفرني فأغفر له**»[(١)].

(١) رواه البخاري (١٣/ ٤٦٤) «التوحيد»، ومسلم (٦/ ٣٨، ٣٩) «صلاة المسافرين»، والترمذي (١٣/ ٣٠) «الدعوات»، وأبو داود [١٣٠١] «الصلاة».

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يجيب الدعوات ويقبل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟

فهو أحق مَن ذُكر، وأحق من شُكر، وأحق من عُبد، وأحق من حُمد، وأنصر من ابتغى، وأرأف من ملك، أجود من سُئل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرحم، وأكرم من قُصد، وأعز من التُجئ إليه، وأكفى من تُوكِّل عليه، وأرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحًا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها، وهو الملك لا شريك له، والفرد لا ندّ له، كل شيء هالكٌ إلا وجههُ، لن يُطاع إلا بإذنه، ولن يُعصى إلا بعلمه، يُطاع فيشكر، وبتوفيقه ونعمته أُطِيعَ، ويُعصى فيعفو ويغفر وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجل حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلّت الفِطَر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، وأشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ هي حياة القلوب، وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذةٌ ولا نعيمٌ ولا فلاحٌ ولا حياةٌ إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورَها، والأُذُن إذا فقدت سمعها، بل فساد القلب - إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق - أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

الآثار: قال فتح الموصلي: «المحب لا يجد للدنيا لذة، ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين».

وقال بعضهم: «المحب طائر القلب، كثير الذكر، متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأبًا وشوقًا».

وأنشد بعضهم:

وكُنْ لربك ذا حبٍّ لتخدِمَه ... إنَّ المحِبِّين للأحبابِ خُدّامُ

وأوصت امرأة من السلف أولادها فقالت لهم: «تعوّدوا حبّ الله وطاعته، فإن المتقين أُلفوا بالطاعة فاستوحشت جوارحُهم من غيرها، فإن عرض لهم الملعون بمعصية مرَّت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون».

وأنشد ابن المبارك:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لَعَمْري في القياسِ شنيعُ

لو كان حُبُّك صادقًا لأطَعْته ... إنَّ المحِبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

obeikandl.com